
أبو الحسن الندوي
حاجة البشرية
إلى
معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي
دار الدعوة للنشر

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة : ٧ شارع السرای - أول المنيل - القاهرة ت وفاكس ٩٨٧٩٢٤
الفرع بجوار عمارات المهندسين - حدائق حلوان - القاهرة ت ٣٧٤٠٠٧٦

رقم الإيداع
٩٢ /٨١٠٥
I.S.B.N.
977-255-057-2

ابو الحسن الندوى



إلى معرفة صحيحة

ومجتمع إسلامى



القاهرة

بسم اللہ الرحمن الرحیم

الفصل الأول

النبوة هى الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة

(نموذج من فكر ابن تيمية)

إن الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية خليق بأن تكتب عنه كتب كثيرة فى أنحاء العالم الإسلامى ، فإنه يصلح أن يقال : إن هذا العصر عصرابن تيمية؛فقد كان لشخصيته ودعوته ودوره الإصلاحى عودة فى هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضة لم تكن لمصلح إسلامى أو مؤلف من المؤلفين القدامى ، لأسباب تحتاج فى شرحها إلى كتاب مستقل .

وقد كانت الهند خليقة بأن تهتم لوجود صلات عميقة الجذور بين دعوته وجهاده ، وبين أوضاع هذه البلاد الدينية والعلمية ، لوجود بعض كبار المدافعين عن دعوته ومدرسته وتحقيقاته ، كحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى من رجال القرن الثانى عشر الهجرى (١) وخلفائه وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه ، وما نالت دعوتهم العلمية والإصلاحية فى شبه القارة من ترحيب وقبول حسن ، ونشاط وحماس فى القرن الثالث عشر وبعده ، وقامت على أساسها مدارس تربوية ثقافية ، وحركات إصلاحية دعوية .

وكانت تجمع بين الدعوة إلى التوحيد الخالص واتباع السنة السنية ، وبين ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ويقتضيه الزمان ، من

١ ـ وهو صاحب الكتاب الفريد فى موضوعه " حجة الله البالغة " توفى سنة ١١٧٦ هـ وهو المعروف بالشيخ ولى الله الدهلوى ؛ ليراجع كتاب صاحب المحاضرة ...... " الإمام الدهلوى " (الجزء الرابع من سلسة رجال الفكر والدعوة فى الإسلام) .

الدعوة إلى تزكية النفوس وتربيتها والقيام بحركة الجهاد فى سبيل الله وتحرير البلاد ، والسعى فى إنشاء حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، ونقل المراجع الدينية الأصيلة إلى لغة البلاد ونشرها فى نطاق واسع ، وإصلاح المجتمع الإسلامى الهندى ، وإنقاذه من رواسب الجاهلية الهندية والتقاليد والأعراف القديمة التى لا تتفق مع تعاليم الاسلام ، والقيام بجولات دعوية واسعة ، والاتصال بالشعب والجماهير اتصالا مباشرا ، وهو مما اتسمت به وامتازت مدرسة حكيم الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى م ١١٧٦ هـ التربوية والإصلاحية ، ودعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦) الإصلاحية الكفاحية الكبرى (١) .

إن شيخ الإسلام ابن تيمية كان من أفذاذ المحققين والباحثين ، والمصلحين المجددين ، فى تاريخ الإسلام ، ومن عماليق الفكر الاسلامى ومن أجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب ، والدور الاصلاحى والتجديدى الشامل ، منها تجديد عقيدة التوحيد ، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة ،ومنها نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وترجيح أسلوب الكتاب والسنة ، ومنها نقد الديانات والملل المعارضة

---

١ ـ ليرجع للتفصيل إلى كتاب المؤلف " سيرة السيد أحمد الشهيد " الجزء ١ - ٢ ـ بالأردية وكتاب " إذا هبت ريح الإيمان " بالعربية ، طبع بيروت والكويت ولكهنؤ .

والمحاربة للإسلام ، والرد على الفرق والنحل المنحرفة عن الطريق القويم والثائرة على الإسلام ، فمن الديانات المسيحية المجابهة للدين الاسلامى عقيدة ودعوة ، وقوة سياسية ، ونفوذا ماديا (١) ومن الفرق " الشيعية " التى ما أضر بالإسلام والمسلمين مثلها (٢) وما شكك مثل ما شككت فى نجاح جهود سيد الرسل وخاتمهم فى دعوته وتربيته ، وفى تميز من نشأ فى أحضان النبوة وتخرج فى مدرسة الرسالة السماوية والتعاليم النبوية بطريق مباشر ، عن الأجيال البشرية وأمم الأنبياء ، فى الصلاح والاستقامة ، والسمو والطاعة لله ورسوله ، وشككت فى نقاء الكتاب المنزل الأخير وبقائه على أصالته ونصه وفى عقيدة ختم النبوة و وحدة الرسل - بما تقـوله وتعتقده فى الإمامة وأئمتها - ومنها تجديد العلوم الشرعية وتنشيط الفكر الإسلامى وتوسيع ثروته وتعميقها ، وإثبات الحاجة إلى الاجتهاد ، وكل ذلك فى اتزان واقتصاد ، واعتراف للائمة المجتهدين السابقين بالفضل ورد الملام عنهم والتماس العذر لهم .

وتلك كلها مآثر علمية فكرية بطولية لا يستهان بقيمتها ولا يقلل من شأنها ، ولا تتيسر ولا تتوفر إلا لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة وقيضه للقيام بمهمة الإصلاح والتجديد .

١ - ونموذجه كتابه العظيم " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " .

٢ - ومثاله كتابه العظيم " منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية " .

ولكن مأثرته الكبرى الرئيسية فى اعتقادى وفى ضوء دراساتى المقارنة واستعراضى لتاريخ الفكر الدينى ، وما قام عليه من مجتمعات ومدارس ، وحركات علمية وفكرية وتأليفية ، هى تركيزه على حاجة البشرية إلى النبوة ، والضغط على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة ، وهو المدخل الرئيسى الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقية والتجديدية ومنزلته بين علماء الاسلام والدعاة والمصلحين ، وذلك يحتاج إلى شىء من الشرح والإفاضة فى الموضوع وبيان " الخلفيات " التى لا يمكن الشعور الحقيقى بمدى أهمية هذه المأثرة وقيمتها ، بدون الاطلاع عليها ، وبضدها تتبين الأشياء " .

ماذا يثبته القرآن ويعلنه ؟ :

يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التى لا يشوبها جهل ولا ضلال ، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل ولا يغنى فيها الذكاء ، ولا تكفى سلامة الفطرة ، وحدة الذهن والإغراق فى القياس والغنى فى التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق

وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك فى مقام صدق فقالوا ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ (١) وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٢) فدل على أن الرسل وبعثتهم هى التى تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها ، الذى تمكنوا به من الدخول فى الجنة والوصول إلى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهى سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه برىء ، فقال فى آخر السورة : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ (٣) والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل فى تعريف الخلق بالخالق ، وفى الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على الخلق ، ونعمة على

---

١ ـ الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

٢ ـ الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

٣ ـ الآيات : ١٨٠ - ١٨٢ من سورة الصافات .

الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة فختم كل ذلك بقوله : (والحمد لله رب العالمين) (١) .

ضلال الفلسفة اليونانية
وسر شقائها وخيبتها

إذن فقد ضل وتعب وجاهد فى غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه ، عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد فى ذلك على عقله وعلمه ، وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه فى بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم فى بعض مجالات علمية ، وحق عليهم قوله تعالى : (ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٢)

وهذا سر ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغنى وملاحمهم العظيمة التى نظموها ونبوغهم فى علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس والفلسفة الطبيعية ، والنجوم والفلكيات ، فخاضوا فى الإلهيات وفى موضوع الذات والصفات والخلق ، والإبداع ،فجاءوا

---

١ ـ أيضا الآية ١٨٢ .

٢ـ الآية : ٦٦ من سورة آل عمران .

بالسخيف المرذول ، وبالمتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات ، التى صدق حجة الإسلام الغزالى رحمه الله فى وصفها بقوله :

" ظلمات بعضها فوق بعض " لو حكى الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطلب فيها تخمينات لقيل إنها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون " (١) .

وقال فى موضع آخر : " لست أدرى كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات " (٢) .

دور ابن تيمية فى التركيز على ما جاء عن
طريق الأنبياء ، وتزييفه لآراء الفلاسفة

ويأتى ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى ، وهذا القرن مسحور مبهور بكلام الفلاسفة والمنطقيين ، فيجعل الرد عليهم موضوعه الأثير الحبيب ، ويركز عليه فى كتاباته وبحوثه ، فيقول مثلا معلقا على كلام الفلاسفة والحكماء : " يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من

---

١ ـ تهافت الفلاسفة ، ص / ١٠٥ .

٢ ـ المرجع السابق ، ص / ١٢٤ .

الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردودا ، والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا بكلام فيه تلبيس وتدليس " (١) .

وحق عليهم قوله تعالى : ﴿ أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ (٣) .

المقارنة بين الإلهيات اليونانية
وعلوم الأنبياء وتعاليمهم

إنه يتعجب حينما يتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان وأقوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التى يأتى بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يقول فى حماس زائد وقوة بالغة :

" إذا نظر فى كلام معلمهم الأول - أرسطو - وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين ، وصار يتعجب تعجبا لا ينقضى ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما

١ - منهاج السنة ، ج / ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول فى الحاشية ، ص : ٢٧٢ .

٢ - الآية : ١٩ من سورة الزخرف .

٣ - الآية ٥١ من سورة الكهف .

جاءت به الأنبياء ، ويرى أن هذا من جنس من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلاء الأنبياء ، فإن دهقان القرية متول عليهم كتولى الملك على مملكته ، جزء من الملك " .

وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء ألبتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعنى بذلك ما اختص الأنبياء بعلمه من الوحى الذى لا ينال غيرهم ، فإن هذا ليس من علمهم ولا من علم غيرهم ، وإنما أعنى العلوم العقلية التى بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية فى أمر معرفة الرب وتوحيده ومعرفة أسمائه وصفاته ، وفى النبوءات والمعاد ، وما جاءوا به من مصالح الأعمال التى تورث السعادة فى الآخرة ، فإن كثيرا من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا فى علومهم ما يدل عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب ، فذلك أمر أعظم من أن يذكر فى ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام فى العلوم العقلية ، دع ما جاءت به الأنبياء فإنه مرتبة عالية " (١) .

" بين ابن سينا أمر النبوءة أنها من قوى النفس ، وقوى النفوس

١ ـ الرد على المنطقين ، ص : ٣٩٤ .

متفاوتة وكل هذا كلام من لا يعرف النبوءة بل هو أجنبى عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن فى الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء ، بل هذا المثال أقرب ، فإن بعد النبوءة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوءة ، رأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء (١).

ويقول فى موضع اخر :

" وأبعد هؤلاء عن النبوءة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام ، وليس فى كلام أرسطو وأتباعه كلام فى النبوءة ، والفارابى جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبى ، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبى ثلاث خصائص : إحداها : أن ينال العلم بلا تعلم ويسميها القوة القدسية ، وهى القوة الحدسية عنده ، والثانى أن يتخيل فى نفسه ما يعلمه فيرى فى نفسه صورا نورانية ويسمع فى نفسه لا فى الخارج ، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبى مما يراه ويسمعه دون الحاضرين إنما

١ ـ النبوءات : ص ٢٢ .

يراه فى نفسه ، ويسمعه فى نفسه وكذلك الممرور(١) عندهم ، والثالث : أن يكون له قوة يتصرف بها فى هيولى العالم بإحداث أمور غريبة ، وهى عندهم آيات الأنبياء وعندهم ليس فى العالم حادث إلا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبعية ... وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل فى نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال .

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعانى بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء وضل بذلك طوائف ، وهذا موجود فى كلام ابن سينا ومن أخذ عنه " (٢) .

الفرق الأساسى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته :

وقد أشار إلى نقطة علمية مهمة وهو يتحدث عن الفرق المبدئى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته ، يقول :

---

١ ـ الممرور من غلبت عليه المرة (خلط من أخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء) وهاجت ، فهو ممرور .

٢ ـ النبوات : ص ١٦٨ .

" والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل وهى طريقة الرسل ، جاءوا بإثبات مفصل ونفى مجمل ، وأعداؤهم جاءوا بنفى مفصل وإثبات مجمل (١) .

توارد علمى والتقاء فكرى عقائدى عجيب :

من الموافقات العجيبة والالتقاءات العلمية الدعوية العقائدية التى تثير العجب والإعجاب ، ما يجله القارىء المتتبع من حدة التفكير والتوصل إلى نتيجة واحدة ، والتركيز عليها ، والإلحاح فى سبيلها ، فى رسائل مصلح آخر - تحقق له من النجاح فى تغيير مسير التاريخ وإنقاذ البلاد بأسرها من خطر الردة الدينية الحضارية العلمية الشاملة ، التى تبناها واحتضنها ملك من أكبر الملوك وأقواهم إرادة وصرامة (٢) وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات وطاقاتها ، مثل ما حصل له ، وهو الشـــيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السر هندى ، (٩٧١-١٠٣٤هالموافق ١٥٦٣ م - ١٦٢٤م) .

---

١ - النبوات : ١٥٣ .

٢ - وهو الامبراطور المغولى جلال الدين أكبر (٩٦٣ - ١٠١٤ هـ الموافق ١٥٥٦ - ١٦٠٥ م) ابن الملك نصير الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة المغولية فى الهند ، ليراجع للتفصيل كتاب المحاضر " الإمام السرهندى " الجزء الثالث من سلسلة رجال الفكر والدعوة فى الإسلام - طبع دار القلم - الكويت .

وذلك إن دل على شىء فإنه يدل على أن الحق واحد ، وأن الإخلاص والتجرد فى دراسة الكتاب والسنة ، واللجوء إلى الله تعالى والإنابة إليه ، والتوفيق الإلهى ضامن بالوصول إلى الحق والصواب ، واللب اللباب ، وصدق الله العظيم :

﴿ والذين جاهدوا فـــينا لنـــهدينهم سبلنا وإن الله لمـــع المحسنين ﴾ (١) .

عجز العقل والكشف وإخفاقهما

فى إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

أثبت الإمام السـرهندى ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف وقصورهما فى إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التى هى وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذى لا يشوبه شك ، والحقائق الثابتة القطعية التى لا تخالجها شبهة ـ بحتمية ويقين . وأن النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشك والريبة ، والخطأ والزلة ، وسوء الفهم والتحريف ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ، فإن النبوة وراء طور

---

١ ـ سورة الروم : ٦٩ .

العقل ، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده وتمجيده إلا بالنبوءة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم (١) .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد فى زلات خطيرة ، وأخطاء فاحشة ، فكما أن العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرد ـ الذى يكون بعيدا عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية ـ صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام الإشراقيين وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات ، كما زل زعماء العقل والفلسفة ،فالعقل والإشراق لا يغنيان فى الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئا ، والبعثة المحمدية ، والرسالة النبوية هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته وأحكامه .

وأعلن الإمام السرهندى فى قوة ووضوح وفى رسائل كثيرة : أن من المستحيل تجرد العقل وخلوصه ، وأن العقل ـ كالحواس الأخرى ـ يتأثر بالعقائد والمسلمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية ،

---

١ ـ ليرجع للتفصيل والاطلاع على نصوص الموضوع " رسائل الإمام السرهندى " أو كتاب صاحب المحاضرة : " الإمام السرهندى " طبع دار القلم ـ الكويت .

وإن كثيرا من استنتاجاته ، وأحكامه تتلون بالألوان الخارجية التى يكون وجودها فى داخله أو باطنه ، وتمتزج بها (١) .

وأثبت أن العقل قاصر عن أن يكون حجة وبرهانا وأن بعثة الأنبياء هى الحجة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

" ولكن الحقيقة ، ولب لباب العلم والعرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلا طريق الأنبياء ، الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوة والرسالة ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السماوات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما

---

١ ـ ومن عجيب المصادفات والدلائل على صحة نتيجة البحث العلمى الخالص ، أن الفيلسوف الألمانى الشهير إمانويل كانت (Emanuel Kant, 1729 1804') بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السرهندى ـ البحث الموضوعى ، والتحقيق العلمى فى صلاحية العقل لتجرده ، وتحرره عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل فى قضية ما من القضايا ، إنه عين حدود العقل ودوائره فى شجاعة ووضوح ، واستبعد وجود العقل الخالص ، ونشر كتابه الخطير " نقد العقل الخالص" (Critique of Pure Reason) عام (١٧٨١م) ، الذى أحدث هزة و اضطراباً فى الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور إقبال : " إنه هدم ـ أعمال المتنورين وحولها إلى كومة من تراب .

The Reconstruction of Religious Thaught In Islam'

يرضاه وما لا يرضاه وبما يأمره به وما ينهى عنه وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأن نبوتهم ورسائلهم منه عظيمة على هذه الدنيا ونعمة ظاهرة ، وما يعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقة ، ودون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرة من ذراته بالتأملات الفلسفية والبحث والاستدلال ، على مدى آلاف السنين ، وبالمجـاهـدات الشاقة ، وتصـفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوام وسنين .

وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (١).

وبالجملة فإن هذا العمل التجديدى ـ وهو التركيز على أن النبوة هى الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة ـ له قيمته العلميـة والعملية الكبيرة والأثر البعيد فى الحياة فى كل زمان ومكان ، وإن كان العصر عصر الفلسفات وما بعد الطبيعيات ، أو كان عصر المدنيات والتنظيمات والسياسات ، كما هو الشأن الآن ، فإن الحياة لا تصلح ولا تستقيم إلا فى ضوء الهداية السماوية والتعليمات النبوية ، وصدق الله العظيم :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم (٢) ﴾ .

---

١ ـ الفكرة مقتبسة من رسائل الإمام السرهندى .

٢ ـ الآيات : ١٥ و ١٦ من سورة المائدة .

الفصل الثانى

مطالبة القرآن للمسلمين بالانقياد التام والاستسلام الكامل

نبدأ هذه الدراسة بقوله تعالى :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم (١) ﴾ .

وإنما أوردت هذه الآية من القرآن الكريم لأنها تشتمل على إنذار وتحذير ، هل يتصور أحد أن يحارب الله ويعاديه ، فما معنى هذا الإنذار والتحذير ، فهل يقدر عبد من عباد الله على أن يحارب الله ؟ ولكن القرآن الكريم قد استخدم كلمة تتضمن هذا المعنى ، وهو ما تقشعر منه الجلود ، وتتصكك لها الآذان ، يقول الله ـ عز وجل ـ وهو خالق الكون ، ومالك الملك والقادر على الإطلاق ، والذى أنعم فأجزل على عباده : ﴿ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾ فإنه لا قبل لكم أن تحاربوه ، وتبارزوه وتعادوه .

يتبادرإلى الذهـــن بادئى ذى بدءأن تستخدم كلمة " الإسلام " فى موضع السلم ، وهو " أدخلوا فى الإسلام كافة " ولكنه أمرهم بالدخول فى " السلم " كافة ، وهى أن تكون المعاملة مع الله معاملة

١ ـ سورة البقرة ، الآيات ـ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

استسلام وانقياد ، وخضوع كامل ، بجميع معانى هذه الكلمات ومقتضياتها ومضموناتها : العقائد ، والعبادات ، والسلوك الفردى والاجتماعى ، وجوانب الحياة كلها ، موافقة ما جاء بـه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، من عند الله رب العالمين ، ومطابقة للأوامر الإلهية والأحكام الربانية ، ولا تكون العلاقات مبنية على الموالاة لأعداء الله والخضوع لأوامرهم

إن كلمة الإسلام فى اللغة العربية مشتقة من " السلم " ومعنى الإسلام هو الانقياد ، والاستسلام ، والتنازل عن كل شىء فى حق الله تعالى وأوامره وتعاليمه عن الأهواء ، والشهوات ، وعن المصالح والأغراض ، وعن الشعور بالتمييز بين المنافع والمضار ، والاطراح على عتبة الأحكام الربانية بالانقياد التام والاستسلام الكامل .

أما معنى السلم ، فهو الصلح ، يقول الله عز وجل فى موضع آخر : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وجاء :

" أسالم من سالم وأحارب من حارب " وقد استخدم القرآن الكريم فى

مواضع مختلفة كلمات تعبر عن الرعب والجلال والهيبة تنذر وتزلزل ، يقول عن الربا :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إتقوا الله وذروا مابقى من الربا ، إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ (١)

وجاء فى الحديث القدسى : " من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب " فإنه من المستبعد والمستحيل أن يكون هناك شقى يدور بخلده أن يحارب الله ويعاديه ، ولكن دراسة نفس الإنسان وتجارب الحياة الإنسانية والأعمال التى تصدر نتيجة لإغفال التعاليم النبوية ، تدل على أن هناك إمكانية لمثل هذه المعاداة ، فيمكن أن يدعى الرجل الإسلام ، ويعترف بعبديته ، ثم يعادى ربه فى بعض أموره ويخالفه فى بعض أحكامه ، فمثلاً يقيم عبد من عباد الله علاقة العبودية مع الله ـ ولكن بشىء من التحفظ ، ويشرك رضاه وهواه ـ فى هذه العلاقة ، أن يشهد أن الله حق . وأن الحساب حق والحشر حق ، ولكنه يعيش باستقلال وحرية فى الحياه الاجتماعية والأسرية ، وفى الثقافة والمبادىء العامة ، وفى العلاقات مع الأقارب والأصدقاء ،

---

١ ـ سورة البقرة الآية ٢٧٨ - ٢٧٩ .

والمعاملات التجارية ، فلا يقبل الله هذه العلاقة المتحفظة المشروطة ، فكأن هذه الآية ، نزلت لإيضاح تلك النكتة ، وفيها عبرة وجرس إنذار لأصحاب مثل هذه العلاقة بالله ، إن الله يقول : ﴿ ادخلوا فى السلم كافة﴾ فإن المشاطرة فى هذا المجال غير مقبولة أن يقول القائل : أقبل هذا ولا أقبل ذاك ، استسلم لهذا ولا استسلم لذاك ، إن الداخل فى المسجد يدخل المسجد بكل جسمه وبكل أعضائه ، فإذا قال القائل إنه يضع قدميه داخل المسجد ، وأما جسمه فيكون خارج المسجد ، أو أنه يطرق رأسه فى داخله ويبقى جسمه فى خارجه ، أو قال : إذا أمرتنى بالقيام فعلى الرأس والعين ، ولكن لا يمكن لى الركوع والسجود ، فإنى أرى فيه إهانة للإنسانية وأشعر بالخيبة والفشل ، وتنازلا عن الاعتزاز والثقة بالنفس ، فإن هذه العبادة لا تستحق أن تسمى بالصلاة ، بل هى كلمة فيها كفر وجحود ، وطريقة فيها طغيان وبغى .

إننا نحن المسلمين تعودنا الطمأنينة والتزكية لتلك الحياة التى نقضيها فى هذه الأرض المقدسة نريد أن نسمع كلمات التهنئة والتقدير والغبطة ، وإن آذاننا تصغى إلى أصوات الترحيب من كل جانب ،

نريد أن نسمع يامرحبا ! يامرحبا ، يا للسعادة !! ندعو الله أن يرزقكم الــدوام والهناء فى هذه الأرض المباركة ، فأنتم قد حالفتكم السعادة ولا شك فى هذه السعادة .

وقد تمنى آلاف من الأولياء المقبولين أن يصلوا إلى هذه الأرض المقدسة ويتشرفوا بزيارتها .

إن الإمام الهمام المجاهد الكبير الذى اعتنق علي يديه أربعون ألف شخص الإسلام ، وبايع على يديه المباركتين ثلاثة ملايين شخص مباشرة ، وعاهدوا على اتباع الشريعة ومجانبة الكفر والشرك والبدع ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ، وأما الذين بايعوا على يدى تلاميذه وخلفائه ، فلا يعد عددهم ولايحصى ، ولا يعلمهم إلا الله ، ولم يكن له نظير فى الدول الأخرى فى التأثير والكمالات العملية والعلمية ، وقد وصل آلاف مؤلفة من العلماء وعامة الناس إلى المراتب العلية والمقامات الرفيعة على يديه ، خلال رحلته الأولى للحج والزيارة - وكانت الرحلة فى تلك الأيام بالسفن الشراعية - خاطبه أحد رفاقه ، بقوله هذه جزيرة العرب ، هذه هى النخلة تبدو من بعيد ، وأومأ إليها - لا يعرف أحد أى موضع كان ذلك الموضع من جزيرة العرب ، وكم كان بعيداً عن تلك البقعة المباركة التى أصبحت جزيرة العرب من أجلها

محببة لدى النفوس وأثيرة فى القلوب ـ فعيل صبره بعد سماع هذه الكلمات ، وخر لله ساجداً ، وركع ركعتين ، شكرا لله تعالى وكان على الوضوء ، ثم قال : الشكر لله الواحد الأحد الصمد الذى أكرمنا بزيارة هذه الأرض المقدسة ، وقد انتقل إلى رحمة الله كثير من العباد والزهاد وبقيت الأمانى فى قلوبهم لزيارة هذه الأرض المقدسة كما كانت ، ولم تتح لهم فرصة لوضع أهداب العيون على أراضيها الطاهرة وغسلها بدموعهم الحارة ـ فإنكم تقولون لو بشرتنا ورحبت بنا ودعوت لنا ليطول بنا القيام فى هذه الأرض المقدسة لكان أفضل من أن تنذرنا وتخوفنا وتأتى بمثل هذه الآية التى يخاطب الله عز وجل بها المؤمنين بأن أمرنا ليس كأمر السلاطين والملوك فى الدنياالذين يقتنعون بشىء من المكوس التى تؤدى إليهم ، وبشىء من التوقير والتبجيل الذى يسدى اليهم من رعاياهم ، وبشىء من الخضوع الذى يكون لأبهتهم الملوكية ، وقدر المقادير والآجال ، وبيده الأمر كله من إنشاء المرض والصحة وإيصال النفع والضرر ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء (١)﴾.

---

١ ـ سورة آل عمرآن ـ الآية ٢٦ .

والتاريخ يشهد بأن الحكومات التى طبق صيتها الخافقين والتى يتفاءل بأربابها الذين بهم ينقلب التراب تبرا ، وفى ظلالهم ينقلب الشؤم تفاؤلاً وسعداً ، غربت شموسها فى طرفة عين وجعل الله عز وجل هذه الشموس آفلة لم تطلع بعد على مر الدهور والأعصار ، إن تاريخ روما الكبرى يشهد كما جاء فى كتاب جبون " زوال وسقوط روما " كيف كانت هذه الدولة ،وكيف كانت عظمتها وهيبتها على النفوس ، سقطت كما تسقط أوراق الخريف .

قلبوا صفحات تاريخ الدولة الساسانية كيف كان عهد مجدها ، وتقلب ملوكها فى البلاد ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾(١)." .

يقول الله تعالى إنه لايجدر الاكتفاء بالصلاة والسجود لله وبذكر اسمه تعالى فقط حتى تظن أن الله لا يسأل عن الأمور الأخرى شيأ فإنه يتحتم عليك أن تدخل فى العبودية الكاملة لى من غير استثناء ولا يقبل أن تقول :إنه لى وهذا لك ، إنما لى كل شىء ، إن مالك وعرضك ، صحتك وجسمك ، رأسك وبدنك ، إيمانك وإسلامك،

---

١ ـ سورة سبأ ، الآية ـ ١٩ .

وفاتك وفداتك ، كله من حقوقنا فإنه لا طاعة لأحد إلا لله وبما شاء الله .

تتضمن هذه الآية التى أوردناها إنذاراً شديداً وتحذيراً عنيفاً ، " (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) فإن كلمة " كافة " كلمة شاملة جامعة ، أى استبسلموا لأوامره كلها ، برمتها ، واستسلموا أنتم جميعاً كذلك له ، فلا يمكن أن ينقاد أحدكم ولا ينقاد الآخرون ، أو أن يطيع أحدكم فى بعض الأمور ويعصيه فى أمور أخرى ، بل كلكم لنا ، وكل مالكم لنا فأطيعونى إطاعة كاملة ، فتكون عقائدكم موافقة بما جاء به الله ورسوله موافقة تامة دون أى انحراف ، أو عدول ، فليس لأحد الأمر فى هذا الكون ؟ ألاله الخلق والأمر ، واعلموا أنه بيده الخلق والأمر ، والصحة والمرض ، وبيده الرزق ، والقوة ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الرازق ، وهو الذى يؤتى الملك والقوة ، والغنى ، بيده الخير كله ، وهو على كل شىء قدير ، لا شريك له فى خلقه وأمره ، وفى ملكه ، لا نبى ولا ولى ، وهو القادر على الإطلاق ولا يجرؤ على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه ، وكذلك يجب أن

تطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة كاملة ، فالذين يطيعونه فى أمور ويعصونه فى أمور ، فإنهم ليسوا من المطيعين للرسول فى نظر القرآن (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)(١) فإذا عرف بسند صحيح ، وطريقة صحيحة معتمدة أنه قول رسول الله وفيه رضاه فلا خيار لأحد فيه ، ولا حرية ، ولا تردد فيه ، إلا أن يطاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويتبع قوله ، ويؤخذبه ، ويعض عليه بالنواجذ .

إن العقائد سليمة صحيحة ، والمسلمون يؤدون الصلوات والفرائض ، ولكن المجتمع مع الأسف الشديد يميل إلى الفساد ، وأصبحت الحياة المنزلية معاكسة للإسلام ، كل بيت مؤثث بغاية من الإسراف والتبذير ، والترف والبذخ ، وبالأمتعة المسلية الملهية كالفيديو الذى أصبح الشغل الشاغل وحديث المحافل ، إننا نحن المسلمين مؤمنون فى المساجد لا شك ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئا عن المساجد ، وهى بيوت الله .

إن المسلم لا يكون فقط مسلما فى المسجد ، إن المسلم يعيش

---

١ ـ سورة الأحزاب : الآية ٢٦ .

مسلما في بقاع المعمورة وأرجائها في برها وبحرها ، وفي قمرها إذا وصل - وقد وصل إليه بعلم الله وتيسيره للانسان - وهو عبد من عباد الله وقد أجمع العلماء على أنه لا يسقط التكليف عن أحد ، ولا عن الأنبياء والمرسلين ، والتكليف معناه اتباع الأمور الشرعية ورعاية حدودها ، وجاء في الآية الكريمة (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد أجمع المفسرون على أن اليقين هو الموت ، فواظب الرسول صلى الله عليه وسلم وداوم على الصلوات إلى حين وفاته ، وكان لا يزال يسأل - صلى الله عليه وسلم - هل صلى الناس ؟ قيل : يارسول الله ، هم ينتظرونك ، فقال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ قالوا : لا ، هم ينتظرونك يارسول الله ! والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس ، ثم صلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، وقد ثبت سؤاله في هذا الوقت ووصيته بالصلاة ، وبالعبيد ، وبالأنصار ، ثم كانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم الرفيق الأعلى " .

وقد بلغ بنا نحن المسلمين الحال إلى أن العقائد إذا كانت صحيحة وسليمة كانت العبادات ناقصة سقيمة ، وإذا سلمت العقائد وصلحت العبادات كلتاهما ، كانت فى المعاملات خنادق كبيرة ، ليست ثلمة واحدة ولا خلل بل خنادق وفجوات وخلجان هائلة .

إن هناك خلجانا وفجوات بين الإسلام والمسلمين فى العقائد والعبادات ، فكم من المسلمين الذين ينطقون بالشهادتين ، ولكن لا علاقة لهم بالصلوات ، ومنهم من إذا صلحت عقائدهم وعبادتهم ، ولكنهم يخرجون المعاملات ، والأخلاق والمثل عن حياتهم ، يكذبون ، ويخونون ، ينقصون المكيال والميزان ، يغشون ويحلفون الزور لترويج متاجرهم وسوقهم ، ويغتصبون حقوق الآخرين ، فلا يأخذهم الحياء ، ولا الغيرة ؛ لأنهم لا يعدونها من الدين .

وكم منهم من لا يرعى حقوق الوالدين ، ويدوس حقوق الأهل والعيال ، ولا علاقة لهم بالجيران ، فلا صدق فى قولهم ولا حلاوة فى لسانهم ، يشكوهم من يسكن حولهم من الجيران أو على الأقل لا يشكرهم لأجل صنيعهم .

وكم منهم من لا يفرق فى السياسة والمعاملات بين عدو الله وخليله ، ولا يميز بين الخير والشر ، ولا بين الصالح والفاسد ، ولا بين المتدين والملحد ، وقد قال الله عز وجل : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)(١) أى لا تميلوا إليهم ، وقد استخدم القرآن لفظ الركون وهو أدنى الميل ،فضلا عن الموالاة والمناصرة ، فلا تركنوا ولا تميلوا إلى الذين جعلوا الظلم شعارهم ، وتخطوا حدودهم وجاوزوا خط الاعتدال ، وداسوا كرامة الحقوق ، وجعلوا الدنيا أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ،وتجردت قلوبهم من خشية الله ، وهم أصبحوا عبيد المال والثروة ، عبيد الدرهم والدينار عبيد القطيفة والخميصة ، عبيد الجاه والمنصب ولا يهمهم إلا شأنهم ، إن كلمة " ظلموا " تشمل هذه الأمور كلها ، ولعل هذه الآية تكون جديدة فى حق بعض المسلمين ، إنها لم تنهانا عن المبايعة على يديهم والخضوع أمامهم ، بل نهتنا عن الركون والميل القليل إلى هؤلاء الذين جعلوا الظلم سمتهم وشعارهم .

فكم من المسلمين من يعتبر هذه الأمور جزأ من الدين ، إنهم يقولون : إن هذه الأمور من الحياة ، ولا علاقة لها بالدين ، فهات ما

---

١ ـ سورة هود ، الآية ـ ١١٣ .

عندك من نصائح دينية ، ولو تكرمت ببيان ما هو الأجر والثواب فى قراءة هذه الأوراد أو تلك وهذه الأدعية ، لكنت جديرا بها ، وأطعناك فيها أما مظاهر الحيـاة والسلوك فنحن أحرار فـيها ، نفـعل فـيها ما نشاء ، لا نفكر بما يلحق الضرر بنا أو بديننا إذا قمنا بموالاته ، ولا نكترث بما يأتى به التعسير فى سبيل الدين أو يحدث نقص فيه إذا قمنا بمعاداته ، فإننا نزعم أنه لا علاقة لهذه الأمور بالدين .

نحن عباد الله فى الأمور كلها ، فينبغى لنا أن نكون ممتثلين للأوامر الإلهية ومتمسكين بها كليا ، وكذلك يجب أن نكون مهتمين باخواننا المسلمين ، وأن ندعو لعلو الإسلام وغلبته فى العالم وننصره بفكرنا وجهدنا ، فلا يجدر بنا أن نكون من العباد الزاهدين ومن المتدينين المتشرعين من غير الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين ، فلا يهمنا أمـر المسلمين أين يذهبون ، وأين يروحون ، وكيف يمتحن الإسلام ، وما هى القضايا التى يعانى منها المسلمون ، وما هى الدول التى أصيب فيها الإسلام بالانحطاط ؟ وقد جاء فى الأثر : " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " ، " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

إن شجرة الإسلام التى نراها قائمة على قدم وساق ، تورق

وتثمر رغم المراحل الصعبة والعقبات التى اجتازتها ، ترجع إلى هؤلاء الدعاة المصلحين ، ونحمد الله عز وجل على بقائها وازدهارها ، لابد أن نوجه اهتمامنا إلى قضـــايا بلادنا الإسلامية ومؤسساتها الإسلامية ، وأن نفكر فى مسألة الجيل الناهض وبقائه على إسلامه ، وأن ندبر خطة لصيانة أولادنا ولكن لا ينبغى لأحد أن ينسى مولده ووطنه وأقاربه وذويه .

يجب علينا أن نوجه اهتمامنا إلى تلك الملة الإسلامية التى تعيش فى أوطاننا وإلى إيمان النشء الجديد ، وأن نهتم بما يحيط بهم من تحديات ، ويخطط لهم من برامج يشاهدونها على الشاشة ، فإن مسلسلات رامائن استمرت شهورا ، وقد أخبرنى شاهد عيان أنه رأى فى مدرسة أن المصاحف بقيت مفتوحة وهى موضوعة على كراسيها ، والطلبة غائبون ، وعند ما سئل أساتذتهم أين ذهب الطلبة ؟ قالوا : اليوم يوم الأحد وهو موعد الرواية المسلسلة لرامائن ، هذه قصة ولاية " بيهار " التى أنجبت العلامة محب الله البهارى (١) ، الذى كان رأس العلماء ، وأستاذ العلماء ، وإمام العلماء ، وكم أنجبت هذه

١ ـ مؤلف كتاب " مسلم الثبوت " فى أصول الفقه ، " وسلم العلوم " فى المنطق ، وقد عكف علماء الهند على تدريسهما وشرحهما . واعتنى علماء الأزهر بكتاب " مسلم الثبوت " تدريسا واستفادة .

الولاية من العلماء الربانيين .

لا بد أن يكون اهتمامنا ببلادنا اهتماما فكريا لا أقول أن يكون هذا الاهتمام اهتماما اقتصاديا فحسب ، بل يكون عقليا .

إن هذه الأرض قد أنجبت مجددين للدين لم تنتفع بهم الهند فحسب ، بل نفع الله بهم العالم ، أستطيع أن أقول فى ضوء التاريخ أن الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السر هندى ، المشهور بمجدد الألف الثانى بلغ نفعه إلى تركيا ، ولم يزل تلاميذ تلاميذه موجودين فيها ، سافر الشيخ خالد الرومى إلى دهلى - وقد قيد قصته - فيقول : إنى سألت القافلة التى جاءت من الهند حينما كنت فى مكة المكرمة أيام الحج ، عن الشيخ الكبير غلام على النقشبندى ، فأبدوا عدم معرفتهم فقضيت العجب منهم على أنهم لا يعرفون مثل هذا العالم الربانى الجليل ،فسافر إلى دهلى ، وأقام عنده مدة من الزمن ، وقرض قصائد مدحية له فى العربية والفارسية ، ورجع من الهند بعد إكمال مقصده وبغيته ، فاستقبلته بلاد العراق على بكرة أبيها ، وتقاطر العلماء عليه كتقاطر الفراش والهوام على النور للحصول على تلك السعادة التى أتى بها من الديار الهندية ، والاستنارة بذلك النور الذى اكتسبه فيها ، وساقه إلى بلاده ، هذه هى بلادكم فلا تغضوا البصر عنها .

إن من أولى الأوليات أن تكون ثقتكم قوية بأن هذا الدين كامل العقيدة فاستمسكوا بها ؛ لأن الانحراف عنها كالارتداد عن الدين واظبوا على تلك الفرائض المعينة لأنه لا تكون الشقاوة أكثر منها من أن تقيموا هناك من غير أداء الصلوات والمواظبة عليها ويتحتم عليكم كذاك أن يكون مجتمعكم إسلاميا حتى لا يكون من المعقول أن تقيموا فى هذه الأرض المقدسة ، ويجرى التلفزيون فى بيوتكم كل وقت يراه أولادكم فى أوقات الصلوات ، يقول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾(١) يبدو أن القرآن ترك هذه الأسماء الفيديو ، والتلفزيون،لأنه فى لسان عربى مبين لا يمكن الإتيان بكلمة إنجليزية ، لكن من الإعجاز القرآنى العجيب أن الكتاب الذى نزل قبل أربعة عشر قرنا أشار إلى ما ينطبق على الجهاز المستعمل اليوم ، ولو قلت : إنه يعنى الفيديو ، والتلفزيون لما أخطأت ؛ لأنه قال فيه ﴿ من يشترى لهو الحديث ﴾ فإن المتذوقين باللغة العربية وبلاغتها فى كل بلد يتذوقون بـ " لهو الحديث " إن الذوق الأدبى يسوق إلى آفاقها وأبعادها ، فإنه يصعب على أن أترجم هذه الكلمة إلى اللغة الأردية بالضبط ، رغم كونى من أبنائها وأصحابها ، ما هى وظيفة الفيديو ، والتلفزيون ، وما يشغلهما ؟ إذا كان أحد يعجبه

---

١ ـ سورة لقمان ، الآية ـ ٦ .

اللعب يشتريه ، فهل لا تدخل فيه هذه الأجهزة : الفيديو ، والتلفزيون ، التى قيل لها " لهو الحديث " ولو ادعيت أن القرن الأول والثانى إلى السابع والثامن ، حتى لو قلت إن ذهن أكبر عالم فى العصر الماضى لم ينتقل إليه لما أخطأت .

وهذا من الإعجاز القرآنى ، ما هو " لهو الحديث " ؟

هذه المسلسلات المرئية والتصاوير الناطقة ، والأصوات المسجلة كلها من " لهو الحديث " هل كان فى استطاعة أحد أن يتصور قبل أربعة عشر قرنا مثل هذا الجهاز حينما لم يحلم به أحد فضلا عن اختراعه وإبداعه ، ولكن كتاب الله قد قال إن هناك رجالا يشترون "لهو الحديث" وهو اللهو الذى لا يحصل للإنسان ولا يملكه إلا بالشراء وبذل النقود .

قوا أنفسكم وأهليكم منها ، وصونوا بيوتكم على الأقل ، يجب أن تكونوا مسلمين كاملين فى الإسلام عقيدة وسلوكا وإذا ما بلغتم الكمال هنا ، فمن أين يأتى إليكم الكمال ؟

فإذا رأى غير المسلمين المؤمنين شهدوا أنهم من بيئة صالحة مباركة ؛ لأن سيماهم فى وجوههم من النور ، وحلاوتهم فى نطقهم من العسل ، والاحترام والحرمة فى عيونهم من الحياء والحشمة؛لأنهم

تحلوا بالإيمان لأن يعرفوهم ويميزوهم بما يملكون ، فإذا لابد أن يعرفكم هؤلاء بسيما وجوهكم وآثار سجودكم ، ونور جباهكم ، وحلاوة نطقكم ، ونصحكم لا من ملابسكم ولابد أن تتغير أجواء بيوتكم ويتأثر بكم أهلكم وعيالكم حتى تجرى فيها تلك السنن النبوية التى لم تكن باقية فيها وأن تتلى فيها الآيات القرآنية .

وحيثما رحلتم ، فكما أن النور يبدد الظلمات وتتقشع السحب الكثيفة به ، تظهر صوركم كالأضواء النيرة فى بحر الظلمات ، لابد أن تتغير حياتكم قبل الرحيل .

فهل عرفتم كم من الناس دخل فى الإسلام بعد صلح الحديبية فى أربع سنوات ما بين فتح مكة وحجة الوداع ، يقول الإمام الزهرى : إنه لم يسلم فى مكة المكرمة فى ثلاث عشرة سنة وفى المدينة المنورة فى عشر سنوات مثلما أسلم فى فترة صلح الحديبية ، فيبين سبب هذا الاسلام أن الباب فتح عليهم بعد صلح الحديبية فجاء رجال من قريش من مكة إلى أقاربهم فى المدينة المنورة فشاهد أهلهم لياليهم فتحيروا قالوا إنهم فى عالم غير ذلك العالم ، إنهم يستيقظون مبكرين ومعهم صبيانهم لا يعرفون اللغو فضلا عن الكذب ، لا ينطقون إلا بذكر الله ورسوله ، إنهم يطعمون أضيافهم إيثارا وينومون أطفالهم جائعين ، فتسارعوا إلى الإسلام لأنهم شاهدوا صورة الإسلام النيرة بأم أعينهم .

يجب أن ينتشر بنا الإسلام فى أنحاء المعمورة بالمراسلات الخطابية وبالعلاقات الأخرى وبالأخلاق الإسلامية الصحيحة فإذا شاهدوا ذلك كان أثره على غير المسلمين طيبا ليتأكدوا أنكم جئتم ببركات ورحمات ، ورافقتكم نفحاتها الطيبة المباركة .

ينبغى أن ترسم هذه الآية الكريمة على ألواح قلوبنا : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ إن القرآن الكريم أتى بلفظ " خطوات " جمعا ، ما يشير إلى كثرتها ، فتشمل الأمور الاعتقادية ، والتعبدية ، والأخلاقية ، والثقافية ، والسياسية ، ولو كان مجتمعنا خاليا عن هذه الأمور لما وقع الفساد والفوضى الذى يقع فى كثير من المجتمعات ؛ لأنه لم يبق فرق بين الصالح وغير الصالح ، بين التدين وغير التدين ، وبين أن ينهج المنهج الشرعى وينهج المنهج غير الشرعى .

الفصل الثالث

المجتمع الإسلامى المعاصر
فضله وقيمته
حاجته ومتطلباته
وطريق الانتفاع به

استعراض المجتمع الإسلامى فى ضوء الواقع :

إنه لمن الأهمية بمكان أن أعالج هنا موضوع : " المجتمع الإسلامى المعاصر " و وضعه الحاضر ، وما يحتاج إليه فى عودته إلى الصفة اللائقة به ، وقدرته على القيام بدوره فى العالم المعاصر ، وأداء رسالته التى يفتقر إليها العالم المعاصر أشد افتقار ، ولعدم وجودها - كما ينبغى - اختل الميزان وامتحنت البشرية بأزمات أفقدت قيمتها وهددتها بالفناء العاجل أو الآجل .

واقعان يبدوان متناقضين :

إننا إذا تحدثنا عن المجتمع الإسلامى المعاصر ، فلا بد أن ننظر بعين الاعتبار إلى واقعين يبدوان متناقضين ، ولكن لابد لنا أن نضعهما فى الاعتبار ، ونعطيهما حقهما من الاستعراض الأمين والحكم المنصف ، حتى يكون كلامنا والنتائج والمقترحات التى ننتهى إليها ، فى ضوء الواقع العملى والحقائق الراهنة .

الفارق الأساسى بين المجتمع الإسلامى المعاصر والمجتمعات غير الإسلامية المعاصرة :

إن الواقع الأول هو أن المجتمع الإسلامى المعاصر ، هو المجتمع الوحيد الذى لا يزال محافظا على الخيط الذى يربطه بتعاليم السماء ، وبالرسالات عامة والرسالة السماوية الأخيرة التى ختمت بها النبوات خاصة ، والإيمان بالحياة بعد الموت ، والحساب والجزاء يوم الآخرة ، والإيمان والاحتساب والطمع فى الأجر والثواب ، والإجلال لكثير من المثل والقيم التى جاءت فى التعاليم السماوية ، وتمثلت أظهر تمثل فى السيرة النبوية المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وفى حياة خلفائه ، وخريجى مدرسة النبوة ، يجعله هذا الخيط لا يرتاح إلى الحياة الجاهلية ارتياحا كليا ، والإخلاد إلى مثلها وقيمها إخلادا تاما ، ولا يزال هذا الخيط الربانى يربطه بما وراء هذا العالم المادى ويميزه - بعض التمييز - عن المجتمع الجاهلى العالمى المعاصر ، وذلك حين تقطع هذا الخيط فى حياة كل مجتمع دينى يوجد على وجه الأرض ، من أعرق ديانة فى القدم ، كالبوذية ، والزردشتية ، إلى متأخرة فى الزمان بعض التأخر ، كاليهودية والنصرانية .

مصدر قوة خارقة للعادة ، والوسيلة الأقوى للبعث الجديد:

إن الشعوب المسلمة ـ رغم جميع معايبها وجوانب الضعف فيها ـ لا تزال تحمل بقايا تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار والطاعة والانقياد ، والحب والإخلاص ، التى اتصفت بها هذه الأمة فى القديم ، والتى لا توجد فى أى أمة مادية على ظهر الأرض ، إن جماهير هذه البلاد الإسلامية ـ رغم جهلها المؤسف وتأخرها المؤلم ـ خامات بشرية ممتازة تصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر ، إن أكبر قوتها الإيمان والإخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دورا خطيرا فى التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات وخوارق تدهش لها العقول ، وهى التى أنقذت هذه الدول الإسلامية وأمسكت بيدها فى كل وقت عصيب ولحظة حاسمة ، فيجب علينا ـ بناء على مجرد حب الواقعية والحقيقة ـ أن نقدر هذه القوة الكبرى حق قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلة للمحافظة على سلامة البلاد وأداء أى واجب كبير ودور خطير على مسرح العالم .

إن وجود هذا الخيط الإيمانى الذى لم يزل ولا يزال يربط المجتمع الإسلامى بفاطر هذا الكون ومدبره ، ومجازى الخلق على الإحسان

والاساءة ، وبخاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربطا عقديا وعاطفيا ـ على تفاوت قليل فى الضعف والقوة والخفاء والظهور ـ كان ولا يزال مصدر قوة كامنة هائلة لا يقوم مقامه السحر البيانى والإقناع العقلى والإغراء المادى ، وخضوع لقيادة أو قوة سياسية ، وامتلاك قـــوة حربية ، ووسائل الإعلام والتربية الجبارة ، قد صنع العجائب ، وأظهر المعجزات التى احتار فى تعليلها وتحليلها المؤرخون الأذكياء والفلاسفة النبغاء فى القديم والحديث .

توفق قادة المجتمع الإسلامى الماضين فى استخدام هذه القوة ، وعدم انتفاع القادة العصريين بهذه الثروة والطاقة :

وقد كان حكيما وموفقا كل التوفيق من قادة قسم من أقسام هذا المجتمع الإسلامى ومجموعة من مجموعات هذه الأمة الإسلامية ، من استخدم هذا الخيط وحقق بتحريكه من المرامى البعيدة ، والأهداف العويصة ، ما لم يكن يتوقع ويقاس ، من انتصار على قوة حربية كانت النسبة بعيدة بين ما كان يملك من قوة وبين ما كان يواجهه ، واسترداد ملك مغصوب أو دولة زائلة ، وانتصاف من عدو قاهر ، ومنافس غلاب .

نضيف إلى ذلك ما تحقق من النجاح الباهر ، ووقوع ما كان

يعتبر شبه مستحيل ، لزعماء الإصلاح ورافعي راية الدعوة والكفاح ، وإثارة الإيمان والشعور فى الجماهير المسلمة ، ومحاربة الحياة الجاهلية ، وعبادة النفس والشهوات ، والجمود والركود ، والبطالة والفسولة ، من المصلحين الكبار والعلماء الربانيين والشيوخ المربين الذين اعتمدوا فى دعوتهم الإصلاحية وفى " استراتيجيتهم " الدعوية على تحريك هذا الخيط ، والانتفاع به ، فى تحقيق مخططاتهم الدقيقة ، وأهدافهم الإصلاحية البناءة البعيدة المدى (١) .

وعدم وجود هذا الخيط الإيمانى الذى يربط المجتمع غير الإسلامى بفاطر هذا الكون ، وبتعاليمه التى جاء بها الأنبياء فى عصورهم ، وتضمنتها الصحف السماوية القديمة التى تناولتها بعد يد التحريف ، وفقد الكلمات الدينية ،والحث على مخافة الله تعالى وخشية الحساب والكتاب فى الآخرة ، والطمع فى الأجر والثواب عند الله ، الكثير من قيمتها وقوتها ، وأثرها على النفوس والعقول ، بل أصبحت فى كثير من المجتمعات غير الإسلامية ، كلمات مجهولة المعانى مثيرة للاستخفاف والاستهزاء ، جعل عمل الدعوة إلى الله ،

---

١ ـ ليرجع لبعض التفصيلات والأمثلة إلى كتاب صاحب الرسالة " رجال الفكر والدعوة فى الإسلام " (١-٢-٣-٤) طبع دار القلم الكويت .

والمجازفة بالنفوس ، والمنافع المادية ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والقيم والمثل المزيفة ، من أصعب الأعمال فى هذه المجتمعات وأطولها طريقا وأقلها نتيجة وعائدة ، زهد فيه كبار القادة وزعماء الاصلاح والتلقين من فساد المجتمع ، فلم يطمحوا إلى قلب الأوضاع على أساس متين ثابت عميق .

تصوير المجتمع الإسلامى وتنويه بما يمتاز به :

وقد أحسن شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال التعبير عن هذه الحقيقة على لسان أكبر عدو منافس ، وأعظم معارض بصرا بهذه الأمة وحذرا منها ، يقول محمد إقبال فى قصيدته " برلمان إبليس " يحكى حديث رئيسه النهائى :

" إنى لست خائفا مما نوهتم به من مذاهب سياسية واقتصادية وفكرية ، كالشيوعية ، والملوكية ، والديمقراطية ، والإلحادية ، ولكنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا لا يخفى على الخبير المتفرس ، أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا ، وإنها

فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ، ويضيىء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) حامى الدمار حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ،دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من أثار استعباد الإنسان للإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطانا على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقيا صافيا ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم (١) ، أمناء لله ، وكلاء على المال ، وأى ثورة أعظم ، وأى انقلاب أشد خطرا مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل ، يوم صرح بأن الأرض لله ، لا للملوك والسلاطين ، فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متواريا عن أعين الناس .

وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقى مشتغلا بمسائل علم الكلام والإلهيات ،

---

١ ـ يقول الله تعالى : ﴿ أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ الحديد ـ ٧ .

وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بآذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره ، اشغلوه عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم ، خيرلنا أن يبقى المسلم عبدا لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهدا فيه ، واستخفافا لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العـالم وتعسه " (١) .

أسباب حيرة العالم الإسلامى ، مصادرها وأسبـابها ونتـيجة هـذه الحيـرة :

والواقع الثانى المعارض للواقع الأول ، أن العالم الإسلامى حائر اليوم بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطالبه ، لعادات نشأ عليها ، وتعليم أذابه ، وشهوات لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره ، لإيمان لا يزال له بقية فيه ، وقومية عجنت مع الإسلام ، وحضارة تخمرت مع الدين .

١ـ " روائع إقبال " للمؤلف طبع دار القلم الكويتية عنوان " برلمان إبليس " ص ١٢١ - ١٣١ ، وطبع دار الشهاب الجزائرية من ١٢١ - ١٣١ .

إن العالم الإسلامى حائر بين فطرته التى تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذى يقبل به على الآخرة ويبعث فى نفسه الثورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التى تزين له المادية وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التى تفرض عليه الاتكال على الغير والاعتماد على العدو والفرار من الزحف .

إن العالم الإسلامى حائر بين شباب ثائر ودم فائر ، وذهن متوقد ، وأزهار تريد أن تتفتح ، وبين قيادة شائخة شائبة ، قد أفلست فى العقلية والحياة ، وحرمت الابتكار والإبداع ، والشجاعة والمغامرة .

إن العالم الإسلامى حائر بين مواد خام من أقوى المواد وأفضلها فى الإيمان ، والقوة والشجاعة ، وبين موجهين وصناع لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها ، ولا ماذا يصنعون منها

سؤال ما هى أسباب حيرة الشباب المسلم ؟

" إنى مستغرب إذا لم يكن الشباب الإسلامى فى حيرة من قبل كما تجده وتشعر به ، إن الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إن فى إمكان البستانى أن لا يغرس شجرة من الشجرات ، ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعى أنه إذا غرس شجرة معينة ثم سهر عليها ، وغذاها

ونماها وسقاها ، وأحيا ليالى متوالية فى سبيلها ، ووقف فى وهج الشمس ، وفى البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ، ولتؤتى أكلها بعد حين ، ثم إذا أتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضبا ، هذا شىء غير معقول وغير طبيعى ، لأن طبيعة الشجرة ، هى طبيعة الشجرة ، منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هى ستعطى ثمر الزيتون ، وشجرة الرمان ستعطى الرمان ، وهكذا .

إن من أعظم الأسباب فى هذه الحيرة التى يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة ، هو التناقض فى التوجيه والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه وبين ما يلقنونه تلقينا ، وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذى سلط عليهم ومنوا به هو السر فى هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد فى بيت إسلامى ، فى أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعى أو بغير وعى ، ثم إنه نشأ فى بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام ، وقرأ التاريخ الإسلامى - إذا أكرمه الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة - وكان سعيدا بوجوده فى بيئة واعية دينية ، ثم سيق - ومعذرتى إلى اختبار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال فى سن مبكرة وليس له خيار - إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلهم ؛ لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب

زعامة فى كثير من العلوم ، كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، ويقتلع كل ما غرسته فى قلبه وعقله التربية الإسلامية ، يسمع ويرى كل ما ينفى كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع فى تناقض عجيب وفى صراع فكرى عنيف ، وهذا الصراع الفكرى يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنه حقا فى هذه البيئة التى نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، أنه قد يواجه الصراع فى ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائما ، إنه يعالجه فى المسجد ، ويعالجه فى المدرسة ، ويعالجه فى البيت ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، إنه يتلقى من مؤسسة " الإعلام " ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذى جاء حديثا إذاعات وأحاديث وبرامج تقضى على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيه ثورة فكرية وقلقلا نفسيا ، والصحافة التى هى " صاحبة الجلالة " فى نظر كثير من الناس تقدم إليه فى أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفراء (على تعبير إخواننا السوريين) وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظره ، صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقى شبابنا هذا فى رغبة ونهامة ، وفى شوق واستجابة ، إنه يقع فى أيديهم كتب علمية لها عناوين

هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم فى الدين ، يشككهم فى التاريخ الإسلامى ، ويشككهم فى مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى فى مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم فى صلاحية هذه الأمة ، وفى خلود الرسالة التى يحملونها ، يشككهم فى صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءات ، ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك فى حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان - وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأى - فى حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف بهذه البراعيم الناعمة التى لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة ؟ .

إن مثل ذلك كمثل عجلة أو مركبة ، ركب فيها فرس فى الأمام وركب فيها فرس فى الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها فى حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون فى أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذى لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية والإسلامية الكبرى التى كان لها التوجيه ، وكانت

لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس فى قلوب الناشئة وفى قلوب الشباب ، بل فى قلوب كثير من الكهول ، بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى فى وجودهم ، تشككوا فى كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهات ، إن هذه الكتب التى أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حاد ، إن هذه كلها غرست فى قلوب شبابنا الشك والحيرة ، والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسى والسر فى حيرة الشباب " .

النقاط الرئيسية الحاسمة لتغيير الحال والعودة بالأمة الإسلامية إلى دورها الإصلاحى والقيادى :

ومع تقييم أساليب الدعوة والعمل الإسلامى الذى تقوم به المنظمات والجماعات الإسلامية ، وتقدير جهودها ، لا مانع من الإشارة - ولو فى غاية الإجمال - إلى النقاط التالية التى يجب التركيز عليها فى الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامى من الجاهلية التى يتطلبها القرن الخامس عشر الهجرى فى ضوء الواقع وتجارب الماضى :

١ - تحريك الإيمان فى نفوس الشعوب والجماهير المسلمة وإثارة الشعور الدينى فيها ، فإن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام

وتحمسها له ، وهو السور القوى العالى الذى يعتمد عليه فى بقاء هذه البلاد وكثير من القيادات وحكومات العالم الإسلامى فى حظيرة الإسلام ، وهى مادة الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التى تستخدم لأى غاية نبيلة ، وهى من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة ، وإخلاص .

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التى تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كل أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التى استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التى نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدمار .

هذا مع تنمية الوعى الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرر مآسى وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها

وضعفها فى الوعى الدينى والعقل الإيمانى .

٢ - صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة فى " تنظير الإسلام " ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ؛ لأن هذه الحقائق الدينية ، هى أساس الإسلام الدائم والأصل الذى منه البداية وإليه النهاية وإليها كانت دعوة الأنبياء وفى سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية .

والحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف فى المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله وكذلك الحذر من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلى ، والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإن ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوى إلى المنهج الجديد السياسى .

٣ - تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبى صلى الله عليه

وسلم والحب العميق له ، الذى يؤثر على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ،وإمام الكل ، ومنير السبل ، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التى تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل ، وتحدث جفافاً فى الشعور ، وضعفاً فى العمل بالسنة ، وتجرؤاً فى القول ، وانصرافاً عن الافتخار به والولوع بدراسة سيرته ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعل البلاد العربية (بفعل أحداث ودعوات قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفى لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول .

٤ - كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد فى المفهوم القرآنى الشرعى الإسلامى وإحلاله المحل اللائق من العقل والعاطفة ، ومن الإكبار والإجلال ، والغبـطة على من اتصف به ومثل به دوراً بارزاً ، والحرص على تقليدهم ، والحنين الى الشهادة ، فإنها ثروة إيمانية ، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديماً وحديثاً ، ومصدر خوارق ، وروائع من البطولة والفداء واقترن به نصر الله وتأييده فى كل زمان ومكان ، وتخلى الأمة عن هذه الطاقة أو الثروة خسارة لا تعوض بشىء ، وفراغ لا يملؤه شىء آخر من التوسع فى العلم والتقدم فى العقل والحضارة .

ويستعان فى ذلك بكتب تثير فى العاملين الدعاة والمستمعين الحماس الدينى ، وتشعل فيهم الحمية الدينية ، وترخص الحياة ومتعها وأمجادها فى سبيل إعلاء كلمة الله .

٥ - إعادة الثقة فى نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية ، والإعلامية ، فى البلاد والحكومات الإسلامية ، بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشرى إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشرى من الإنهيار والانتحار ، الذى تعرضت لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وإنه ليس " بطارية " قد نفدت شحنتها أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة وسفينة النجاة التى هى كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة فى أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسئول عن كل تصرفاتها وسبب الردة الفكرية والحضارية التشريعية ، والتى تكتسح اليوم العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وتعانى منه الشعوب المسلمة - التى لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام - وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات

والحكومات ، والشعوب والجماهـير ، وسبب القلق الذى يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعــود على الأمـة والبلاد بفائدة .

٦ - قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب المنتشر السائد فى العالم الإسلامى ، رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، ليبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلق وصراع دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقــوم العالم الإسلامى على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية فى الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامى بسماته وخصائصه .

٧ - حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة ،

بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ فى العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن ، أن الفقه الإسلامى وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها فى العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التى لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها فى يوم من الأيام ، وهى تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدى الناس .

٨ - الحضارة عميقة الجذور فى أعماق النفس الإنسانية ، وفى مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة - التى نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان فى صياغتها نصيب كبير للذوق الدينى الخاص - وطابع هذه الأمة الخاص ، مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها فى إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلابد للحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدنى الإسلامى المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولابد من تمثيل الحضارة الإسلامية فى عواصمها ، وفى دوائرها وفى بيوتها ، وفى مجتمعاتها ، وفى فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى حد فى مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامى نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة

للإســــلام.

٩ - معاملة الحضارة الغربية - بعلومها ونظرياتها واكتشافها وطاقتها - كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور فى العالم الإسلامى ، حضارة قوية عصرية . مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل فى جانب ، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار فى جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر اليه أمتهم وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كانوا فى حاجة إلى أن يتعلموا من الغرب كثيراً ، فهو فى حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم ، أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

١٠ - إقناع الحكومات المسلمة - المسالمة للإسلام - بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجـــو المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعى لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الإسلامى ، والتعاون على البر والتقوى - والشعور بالتقصير على الأقل - بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التى كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها .

١١ - أما البلاد غير الإسلامية فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التى فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوى القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسئولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الإنهيار الخلقى ، والخواء الروحى ، والتدهور الاجتماعى الذى تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعبا ، حتى يتهيأ للإسلام أن يثبت جدراته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغى والقيادى فى هذه البلاد .

الأمل فى القادة المخلصين الجادين الواقعيين :

إن التاريخ شاخص ببصره فى مطلع هذا القرن إلى من يحقق مطالب العصر والإسلام التى شرحناها ، ويقوم بهذه التجارب الجريئة الحكيمة ، والمؤرخ ممسك قلمه يسطر به سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية فى العالم الإسلامى ، والعبقرية والعصامية فى التاريخ الإسلامى .

إن الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ،

وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنها ليست فى هذا المجال - من تعاسة الحظ - حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، إن جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما مقلدة جامدة وصورة شاحبة للحضارة الغربية ، وإما هى ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلامى بصورة عامة لسد هذا الفراغ الذى سيحدث بعد نهاية الحضارة الغربية وانسحابها عن مسرح القيادة ، رد إليه منصب قيادة الجنس البشرى ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذى لا يفوض إلا إلى أمة فتية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (*) .

الآية ٦٢ الأحزاب

الفصل الرابع

حاجة العالم

إلى

مجتمع إسلامى مثالى أفضل



إن الحاجة الأولى الملحة فى عصرنا هى وجود مجتمع إسلامى مثالى نموذجى يرضاه الله تبارك وتعالى ويكون فى صالح الإنسانية ، ويكون نموذجا بل مرآة للتعاليم الإسلامية فى العقائد أولا ثم فى الأخلاق والمعاملات وشعب الحياة ، هذا المجتمع مفقود ، لا أقول معدوم ، وإنى أعيذ نفسى أن أقول هذه الكلمة ، ولكنه مجتمع مطلوب فى الواقع ، ومجتمع محتاج إليه ، إنه لا يغير وضع العالم فى هذا الوقت شئ مثل ما يغير وجود هذا المجتمع المثالى الإسلامى ، ـ إن الإسلام ما شق طريقه إلى الأمام وما فتح الله له هذه الفتوح العظيمة التى لا تزال موضع دهشة المؤرخين والمتبصرين والناقدين ، ولم يستطيع الإسلام أن ينشئ نمطا جديدا من الحياة وأن يجلب الشعوب والأمم والعقول والقلوب ، والنفوس والأرواح ، فى كم وكيف ، ليس لهما مثال فى التاريخ الإنسانى ، لم يستطيع الإسلام أن ينجز أو يحقق هذا المطلوب وأن يصل إلى ما وصل إليه فى الماضى ولا تزال له آثار باقية ليس بتعاليمه وتوجيهاته فحسب ولا بمبادئه ومثله ، بل المجتمع الحى الذى يسعى على القدم ويتكلم باللسان ويعمل باليد ويشعر بوجوده فى الحياة فى الخارج .

لقد كان هذا المجتمع مفقودا بل كان معدوما منذ قرون بل منذ

آلاف من السنين وكانت التعاليم الخلقية فى الصحف السماوية - إذا كانت هذه الصحف السماوية على أصلها وإلا ضاع منها الكثير وحرف منها الكثير - ولكن لم يكن يوجد مجتمع يتنفس فيه الإنسان ، ويشم فيه رائحة الإيمان ، ويشعر بالنفس الإيمانى والشعور الإيمانى ، وتملأ جوارحه وتغمر قلوبه نفحات روحانية ، يشعر فى ذلك بالسعادة الحقيقية ، ويشعر بأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن العذاب إلى النعيم .

هذا المجتمع الذى أوجده محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان مركزه الأول فى المدينة المنورة ، ثم امتد هذا المجتمع حتى تخطى الحدود وبلغ إلى أقصى الأرض ، هذا المجتمع هو الذى جلب القلوب والنفوس إليه ، وكان أكبر برهان ، وإن ألف برهان فى جانب ، وألف دليل عقلى فى جانب ، ووجود هذا المجتمع ووجود هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يمثلون هذا المجتمع كان كافيا ، كان الإنسان إذا دخل فى هذا المجتمع انجذب إلى هذا المجتمع بقلبه وقالبه وعشق هذا المجتمع وما أحب أن يفارق هذا المجتمع ، وأراد أن يعيش فيه ويموت فيه ، يروى عن سيدنا الإمام ابن شهاب الزهرى وهو من كبار التابعين وممن عليهم الاعتماد فى رواية الحديث ، يقول :

" لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ،

وكلم الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى عامين مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر " (١) .

وذلك فى فترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة لأنه قد سمح لهم ، وتيسر لهم لقاء أقاربهم وقضاء بعض الوقت معهم ، ورؤيتهم عن كثب وقضاء النهار معهم ، فرأوا أنهم نمط آخر من الإنسانية ونموذج آخر ، لا يكذبون ولا يسبون ولا يغضبون غضبا مفرطاً ، ويؤثرون على أنفسهم وأبنائهم ولو كان بهم خصاصة ، ويذكرون الله قياما وقعودا ويحتسبون فى كل عمل ، لا يعملون عملا إلا بإيمان واحتساب ، كأن بيوتهم قطعة من الجنة ، قطعة من جنة الفردوس ، لا جدال فيه ولا سباب فيه ولا غيبة فيه ولا حسد فيه ولا مراء فيه ، فكانوا يسلمون ، يأتى الواحد إلي خاله ، ويأتى الثانى إلى عمه ، ويأتى الواحد إلى ابن أخته وإلى ابن عمه كما جرت العادة ، لأنه قد أزيلت تلك السدود التى كانت بين أبناء قريش ، بين الكفار من قريش وبين المسلمين ، وأمنوا على نفوسهم وأرواحهم ، وجاءوا يزورون إخوانهم وأقاربهم .

وإذا قضوا معهم أياماً ، كانوا يفكرون فقد رزقهم الله تعالى

---

١ - سيرة ابن هشام ١ ق ٢ ص ٢٢٢ .

سلامة الفكر ، إنهم استعرضوا الوضع فقالوا نحن من نسل واحد ، من ذرية واحـدة ، نحن بنو عدنان ، نحن بنو قريش ، ثم لغـتنا واحدة ، يتكلمون بالعربية ونحن نتكلم بالعربية ، ثم إن غذاءهم واحد يأكلون ما نأكل ونأكل ما يأكلون ، ثم لباسنا واحد ، لأن العرب كانوا يلبسون لباسا واحداً وزيا واحداً ، من أين جاء هذا الفرق ، من أين جاء هذا الفرق الهائل ، هذا الفرق المدهش ، من أين وقعت هذه الفجوة العميقة بين حياتنا وحياتهم ، هؤلاء كأنهم ملائكة ، ونحن بشر ، إنهم أسلموا بعد ذلك ، وعلى كل حال هم من قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يرون هذا الفرق الهائل فيفكرون لأن الله سبحانه وتعالى رزقهم سلامة الفكر والقدرة على الموازنة والاستعراض الصحيح ، فقالوا إنما جاء هذا عن طريق الإسلام لماذا لا نسلم ؟ فأسلم هذا العدد الكبير لأنهم رأوا الإسلام بأعينهم يسعى على قدميه ، ويتكلم بلسانه ، ويلمسونه لمسا ، لأن القضية ليست قضية فكرية أو قضية مقارنة بين الديانات أو قضية عقلية قياسية ، بل أصبحت قضية عينية ، قضية مشاهدة .

إننا الآن فى حاجة إلى مثل هذا المجتمع إن هرقل إمبراطور الروم مرة سأل أحد رجال قواته ، أو أحد قادة جيشه ، فقال يافلان بالله أخبرنى أنا أرسل جيشاً بعد جيش ، وكتيبة إثر كتيبة ، هذا الجيش الذى هزم الإيرانيين فى الأمس القريب ، ودمرهم وكسر

شوكتهم ، وتغلغل فى بلادهم ، كيف يعجز هذا الجيش عن أن يتغلب على جيش المسلمين الذين ما مارسوا الحروب ، ولم تكن لهم تجارب حربية مثل ما كانت للإيرانيين ؟ كانت إيران إمبراطورية راقية من أرقى الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ ، إنهم كانوا يعرفون الأساليب الحربية كما نعرف أو أحسن منا ، كيف استطعنا أن نهزمهم ، ولا نستطيع أن نهزم هؤلاء العرب البدو ، سكان الخيام ورعاة الإبل ، كيف لا يستطيع هؤلاء القادة المحنكون الذين هزموا إيران بالأمس أن يتغلبوا عليهم ؟ صفهم لى ، قال أو تعفينى - ياجلالة الملك ، قال:لا ، صفهم لى ، قال إذن تسامحنى ، فقال له ، قل ما شئت .. قال : هؤلاء بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، هم عباد ليل وأحلاس خيل ، إذا دخلت فى مسجد فى الليل لم تستطع أن تسمع صوتهم لدوى ما يقرؤنه من القرآن ، لهم دوى كدوى النحل ، ولا يأخذون شيئا من دكان إلا إذا أدوا ثمنه ، وإذا سرق ابن أميرهم قطعوا يده ، فقال والله إن صدقت فإنهم سيصلون إلى موضع قدمى هاتين ، وهكذا كان .

هذا المجتمع هو حاجة الإنسانية الآن ، لقد ارتقت المدنية كما تعرفون ، إنها وصلت إلى آخر نقطة ، إلى أوجها ، استطاع الإنسان اليوم أن يسبح فى الجو ، استطاع أن يصل إلى القمر ، وكما يقول الدكتور محمد إقبال : إن الذى أسر أشعة الشمس ووصل إلى القمر

لم يعد يحسن أن يمشى على الأرض كإنسان ، وكما قال عالم هندى لفيلسوف بريطانى ، كان هذا البريطانى الإنجليزى يتبجح ويذكر رقى المدنية والفتوح التى حققتها المدنية الغربية والصناعة الغربية ، قال : إننا قطعنا رمالا طويلة أو عويصة ، وإننا قطعنا فى كذا من الساعات فى سيارات ، ونحن نسير من مكان إلى مكان بالرحلة الجوية بالطائرة فى كذا من الوقت ، ونحن فعلنا كذا وكذا ، فقال هذا العالم الهندى نعم إنكم استطعتم أن تطيروا فى الجو كالطير ، واستطعتم أن تسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم لا تحسنون المشى على الأرض كإنسان ، فالمدنية الغربية فى الحقيقة متناقضة ، إنها وصلت إلى أرقى مدى من الصناعة ، ومن الفتوح العلمية والفتوح الاكتشافية ولكنها أفلست فى الإنسانية ، أفلست فى البشرية .

نحن الآن فى حاجة إلى أن نحاول أن ننشئ مجتمعاً نموذجياً مثالياً من بلاد الإسلام ، وإنى أقول لكم وأوكد لكم إنه إذا وجد هذا المجتمع لجاء الجوابون لجاء التواقون ، لا أقول الجوابون أقول التواقون لرؤية هذه المدنية من أقاصى الدنيا ليقضوا يوماً واحداً فى هذا المجتمع إنهم سئموا الحياة الآلية فعلا ، إنهم يملكون العالم بالقوة السياسية والحربية والمالية ، ولكنهم قد سئموا هذه المدنية ، وإنهم فى شوق إلى أن يجدوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً صالحاً ،

مجتمعاً مثالياً ، مجتمعاً خلقياً ، فإذا سمعوا أن فى أى جهة من جهات الشرق الإسلامى ، فى أى مكان من أرض الله وجد هذا المجتمع لجابوا الآفاق ، وقاموا بالرحلات الطويلة الباهظة لرؤية هذا المجتمع ، نحن فى أشد الحاجة لننشئ هذا المجتمع ، وهذا لا يكون إلا إذا كان عن طريق المنابر فى المساجد وعن طريق التوجيهات التربوية ، وعن طريق الدروس الدينية ، لأن المسلمين الآن لا يزالون على خير ماداموا مرتبطين بالعلماء بالتوجيه الدينى ، وبالدروس الدينية ، فيجب أن نزيل ذلك التناقض الذى حدث فى حياة المسلمين .

لقد أصبحت حياة المسلمين وحدات متنافرة ، بل فى بعض الأحيان وحدات متناقضة ، وحدة دينية فيها صلاة وصيام ، ولكن فساد فى المعاملات ، وضعف فى الأخلاق ، وإخلال بالواجبات والفرائض ، وهكذا ، وإذا كانت هناك بيئة صالحة فى ظلال الدين ، فهنالك حياة غير صالحة فى البيوتات ، الحياة العائلية ليست حياة مثالية دينية ، يجب أن تجمع هذه الوحدات كلها ، فتكون حياة المسلمين وحدة واحدة لا مقسمة موزعة من وحدات كثيرة فيقال : إذا أردتم أن تأخذوا صورة مشرقة للإسلام والمسلمين ، فعليكم بالمساجد ، ومن يدخل فى المساجد من غير المسلمين ؟

أذكر بهذه المناسبة مثالا من تجربتنا فى الهند ، بلد الأغلبية غير

الإسلامية ، قمنا فى الهند بحركة تسمى " حركة رسالة الإنسانية " نخاطب بها المسلمين ونوجهها إلى غير المسلمين أيضاً ، فندعوا إلى الأخلاق الصالحة والحياة الشرعية النزيهة وإلى التسامى عن عبادة المادة ، وعبادة الأموال ، والرشا والخيانات والجنايات ، وندعو إلى حياة شريفة نزيهة خلقية ، وبذلك أقول للمسلمين تستطيعون أن تتولوا قيادة هذه البلاد 6 لأن هذه البلاد فى سبيل انتحار جماعى ، وفى سبيل انهيار مفزع ، ليس المجتمع الهندى وحده بل كل مجتمع ، أقول لكم عن تجربة ومشاهدة كل مجتمع فى العالم يسعى بسرعة إلى الانهيار الجماعى ، والانتحار الجماعى ، أنا أقول لهم إذا كنتم ممثلين للإسلام وللأخلاق الإسلامية وللحياة الإسلامية فتستطيعون أن تنقذوا هذه البلاد ، ثم الله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم : ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون " فأنتم بذلك تستطيعون أن يكرمكم الله مرة ثانية بقيادة البلاد ، وقد لفت أنظار المسلمين إلى مواضع الضعف فى حياة المسلمين أيضا مثلا فى المعاملات،فى الأخلاق ، فى التجارات ، ومثلا فى الوظائف وفى أداء الواجب ، وقلت لهم أصلحوا أنفسكم أولا ثم قودوا البلاد ثم تسلموا مسئولية إنقاذ البلاد ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ليس النبى صلى الله عليه وسلم على الأرض بيننا الآن ولكن أمته لا

تزال ، لا يسوغ أن تنهار بلاد وأن تسقط بلاد وأن تكون فريسة الدمار والانهيار والانتحار مع وجود الأمة الإسلامية فيها ، فأنتم المسئولون أمام الله ، ومسئولون فى التاريخ كيف انهارت هذه البلاد وكيف غرقت هذه السفينة وأنتم من ركابها ، كيف تغرق سفينة وأنتم ركابها ؟ إنكم تستطيعون أن تجدفوا هذه السفينة إلى النجاة ما دمتم على هذه السفينة مع زملائكم الآخرين ، فأنتم تجدفون هذه السفينة ، فقودوا البلاد قيادة خلقية ، قيادة إنسانية ، إن الناس ينظرون إليكم بنظرة إجلال وتقدير ، أما المنافسات السياسية فقط ، وأما الحروب الطائفية فقط ، وأما الاصطدامات المادية فقط ، وأما التكالب على المادة ، هذا لا يرفعكم ولا يشرف قدركم ولا يرفع منزلتكم فى عيون الآخرين ، أنتم إذا تجردتم عن الأنانية ، وإذا تجردتم عن الشهوانية ، وإذا تجردتم عن عبادة المادة ، وإذا رثيتم للإنسان مهما كان ، هنالك يكرمكم أهل البلاد ، وينظرون إليكم كالمنقذين .

إن المجتمع الهندى يمشى بخطى سريعة إلى الدمار والبوار من أجل انتشار الرشوة وعبادة المادة ، وصورت لهم وضع البلاد ، فجاء زعيم الطوائف وأراد مقابلتى فخشيت أن يوجه أسئلة يناقشنى ، ولكن بعد ذلك سمحت له فجاء وقال : إننى قد سمعت كلمتكم بالأمس فوصلت إلى نتيجة وهى أنكم تهتمون بهذه البلاد أكثر منا ، أنتم

تهتمون بهذه البلاد ، وأن وضع البلاد يقلقكم أكثر مما يقلقنا ، فقلت هذه والله شهادة لها قيمة ، هكذا يجب أن يكون المسلمون في هذه البلاد حتى ينظر إليهم مواطنوهم كمنقذين للبلاد ، ويرجعون إليهم كما يرجع الإنسان الغريق إلى سفينة .

هكذا يجب أن يكون في البلاد الإسلامية وخصوصا في مركز الإسلام مجتمع ممثل ، مجتمع حي متحرك ، مجتمع يمكن أن يلمس باليد ، ويشعر به في جميع مرافق الحياة ، في جميع نواحي الحياة ، هذا هو الشئ الذي يتعطش إليه العالم كله ، غربياً كان أم شرقياً ، إنه موزع بين المراكز من القيادات الغربية والشرقية ، لكنه ليس في حاجة أكثر من حاجته إلى وجود مجتمع صالح ، مجتمع مثالي نموذجي ، يطبق تعاليم الإسلام ويفكر في مصير الإنسانية ، يتألم لما يرى حوله من أزمات ومحن وإهانات للإنسانية ونسيان للخالق ، واستعباد الإنسان للإنسان ، هذا المجتمع هو حاجة العصر الكبرى ، وأنتم تستطيعون أن تنشئوا هذا المجتمع أولا في هذه البلاد المقدسة التي فيها نشأ ، وهنا ولد ، وهنا شب ، وهنا ترعرع ، ومن هنا خرج وفتح الآفاق ، وفتح العالم ، فالمسئولية ترجع إليكم أولا ، وإن شاء الله نترسم خطاكم ونمشي خلفكم : والعالم الآن أقول لكم بصراحة : العالم الآن : لا يقيم وزناً كبيراً للرفاهية وللرخاء وللثراء الفاحش ولوسائل المعيشة لما يعود على أهل البلاد بالرخاء والثراء ، العالم لا

يهابه ولا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم وزناً للمثل والمبادئ والأخلاق والمعاملات وأسلوب الحياة ونمط الحياة .

أنا لا أكفر بالنعمة بل أشكر الله تعالى على ما أنعم به علينا من وجود آلات الترفيه وآلات المدنية ، من كثرة السيارات ومن الأنوار المنيرة للبلد ومن هذا المستوى الرفيع من المدنية ، أقول : هذا كله من فضل الله ، أنا لا أكفر بنعم الله ولكن العالم لا يقيم له وزناً كبيراً ، إنما يقيم الوزن الكبير للأخلاق وللمجتمع المثالى ، الإنسان إذا دخل فى هذا البلد سمع اسم الله تبارك وتعالى ، رأى الناس يخشعون فى المساجد ، رأى الناس يخدم بعضهم بعضا ، إن القادمين من الغرب لا يدهشون إذا دخلوا مطاعمنا وفنادقنا ، عندهم أكبر من هذه الفنادق ومن هذه المنازل لكنهم يجلون ويقدرون وقد يخشعون فى بعض الأحيان إذا رأوا هناك حياة صادقة بسيطة بعيدة عن التكلفات وعن التنميق وعن التنافس المادى وعن المظاهر ، الحقائق غالبة على المظاهر ، أما إذا كانت المظاهر غالبة على الحقائق ، فهم الذين اخترعوا هذه المظاهر ، ومنهم استوردنا هذه المظاهر وهم أهل البضاعة ، هم لا يقيمون لها وزناً كبيراً ، أما إذا دخلوا هنا ورأوا السكينة تغشى المدينة كلها ، يعنى قلوبهم تشعرهم بأنها تشعر بسكينة ، تشعر بالخشوع لله تبارك وتعالى ، تشعر بالاحترام

للإنسانية ، تشعر بالتواضع وبالبساطة ، هنالك يخضعون ويدخلون فى الإسلام أفواجاً ، وهكذا دخل الناس فى الإسلام أفواجاً ، رأوا حياة بعيدة عن مخيلاتهم وبعيدة عن تجاربهم كل البعد ، هؤلاء بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينهم يجوعون ويعطشون ويمرضون ويصحون ، هم خاضعون للنواميس البشرية ، ولكنهم كأن هنالك عالماً آخر أمامهم ، تعرفون أن رجلا أسلم ، وهو جبار بن سلمى ، وكان مستبعداً أن يسلم ، فقالوا له كيف أسلمت ؟ قال والله إن قصة إسلامى ، أننى واجهت مسلماً ، اسمــه حرام بن ملحان طعنته برمح ودخل هذا الرمح من جانب وخـرج من جانب آخر ، فلما خرصــريعا ، قال " فزت ورب الكعبة"(١) .

قلت ما معنى هذا ؟ هل أنا فى حلم أم هذا كاذب ، والإنسان لا يكذب عند الموت ، فإذا كان يكذب فى بعض الأحيان فعند الموت لا يكذب ، وما جرب على العرب الكذب ولا النفاق ، إنما كان النفاق من خصائص المدنية جاء عن طريق اليهود ، هكذا كانوا يفسرون أن الآيات التى نزلت فى النفاق وفى ذم المنافقين كلها مدنية ، لأن النفاق ما كان يوجد فى مكة ، فالطبيعة العربية ضد النفاق وضد الكذب إنه استغرب وحار : طعنت رجلا برمح ودخل الرمح من جانب وخرج من

---

١ - راجع البداية والنهاية ج ٤ ص ٧٠ - ٧٢ ، دار الفكر بيروت .

جانب ، وخر صريعا يشحط فى دمه ، ويلفظ نفسه الأخير ، إنه أيقن أن زوجه ستكون أرملة ، وأبناءه سيكونون أيتاماً ، إنه حرم كل لذة فى الدنيا ، فكيف يقول " فزت ورب الكعبة " ما هذا الفوز ؟ قال له فسر لى السبب ومعنى الكلمة التى قالها ، فقيل .. إنه كان يشير إلى الجنة ، إنه يعتقد ويؤمن بأنه إذا قتل فى سبيل الله فإنه يدخل الجنة ، فإنه يكون مستحضرا لهذه الجنة وناظراً إليها ، فقال فزت ورب الكعبة ، فأسلمت ، يقول هذه قصة إسلامى عرفت أن وراء هذه المظاهر عالماً آخر ، أن وراء هذه الحقائق التى آمنا بها وسلمناها ، وبنينا حياتنا كلها عليها ، أن وراء هذه الحقائق حقيقة أكبر منها ، وهى حقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وحقيقة وجود الله تعالى والجنة والنار والثواب والعقاب ، فكان هذا سبب إسلامى " .

هذا الذى يحتاج إليه العالم الآن ، تجارب جديدة ، مشاهدات جديدة ، مشاعر جديدة ، ومغامرات جديدة ، اكتشافات جديدة ، أما هذه المظاهر فمهما تضخمت المدنية ومهما بلغت أوجها ، وبلغت إلى مالا نستطيع أن نتصوره الآن ، يمكن أن تصل المدنية إلى أكبر قمة بعد قليل ، ولكن هذا لا يدهش الإنسان الغربى ولا الإنسان المادى ولا الإنسان غير المسلم ، الهندوسى مثلا ،والمجوسى والنصرانى ، إنما تحمله على التفكير من جديد ، وعلى استئناف النظر ، وعلى قلب

التصورات والمسلمات ، هو شئ ما كان يحلم به وما كان يصدقه ، وهو أن الرجل الذى هو على عتبة الموت ، بل قد عانقه الموت ، يقول فزت ورب الكعبة ما معنى الفوز ؟ إنهم عندهم مقاييس معدودة للفوز ، ما هو الفوز عندهم ؟ تملك أكبر قدر من المال ، تملك أكبر من القوة السياسية ، اعتلاء كرسى للحكم ، النفوذ فى العالم الخارجى ، الشهرة العالمية ، الشرف والكرم . حفلات تكريمية ، ما كان عندهم قياس ولا افتراض لمثل هذا الفوز ، يموت الإنسان ويفارق كل شئ فى هذه الحياة ، يفارق كل لذة فى هذه الحياة ، ويعود لا يملك شيئاً ، ويقول فزت ورب الكعبة ، هذه الكلمة فعلت فى قلب هذا العربى الذى أسلم ، عملت فى قلبه هذه الكلمة وفى مخه وعقله مالا تعمل كتب كثيرة ، بل مكتبات عظيمة من الاستدلال ومن الدلائل العقلية والعلمية ، هذا الذى يحتاج إليه الإنسان اليوم ، وأكثر ما ينظر إليه العالم ، وحق له أن ينتظر هذا من هذه الجزيرة العربية ومن البلاد العربية مثل الشام الحبيب المسلم ، ومصر كنانة الإسلام والعراق بلاد الرافدين ، وغير ذلك من البلاد العربية ، أولا ينتظر العالم أن يتعرف بهذا فى هذه البلاد ثم ينتقل هذا إلى بلاد المسلمين الأخرى .

إننا نسعى كلنا فى إيجاد هذا المجتمع الإسلامى فى أى بقعة من بقاع العالم ثم لا يكون هذا شيئا مغموراً بل يعلم العالم جميعاً أن هناك مجتمعاً إسلامياً ، هنالك يتهافت الناس عليه تهافت الفراش

على النار ، نعم ، لأن العالم الآن يملك كل شئ إلا هذا ، هذه النقطة التى أريد أن ألفت النظر إليها أنكم موضع أمانة وثقة ، إنكم من فوق المنابر ومن حلقات الدروس توجهون المستمعين إلى أن يحيوا حياة إسلامية كاملة، وحدة كاملة لا وحدات مبعثرة ، وحدات متناقضة ، مسلم فى العقيدة ، ولكنه نازل هذه المنزلة من المعاملات فى الأخلاق، فى التجارة ، فى الوظيفة ، فى الجوار ، لا ، مسلم من العقيدة إلى الكلام مع الناس وإلى المشى فى الأسواق ، وإلى قضاء الحياة ، مسلم من أوله إلى آخره ، (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) استقاموا ، ومعنى الاستقامة الشمول ليس معنى الاستقامة الثبوت فقط بل يدخل فى معنى الاستقامة الثبوت والشمول ، هؤلاء هم المستقيمون الذين تشمل حياتهم كل جوانب الإسلام ، العقائدية ، والخلقية ، والعملية والاقتصادية ، والسياسية والإدارية .

والله الهادى إلى الصواب